الحجاجية في التشبيه الضمني

أ. م. د. عماد محمد محمود
كلية الآداب/ جامعة بغداد

(مُلَخَّصُ البَحث)

الأساليب البيانية عموما من الصنف الذي تستبطن نفساً حجاجياً بصورة أو بأخرى، ومن هذه الأساليب (التشبيه الضمني) ، الذي يمتاز بخصائص متعددة تميزه عن غيره من أنواع التشبيه ، و أبرز تلك الخصائص هي وجود قضية مفترضة تطرح في طرف المشبه ، تحتاج إلى برهان وحجة تثبتها وهو ما يتكفل به الطرف الثاني أي المشبه به. وهذا البحث يحاول التأسيس لدراسة الأساليب البلاغية المألوفة على وفق النظريات البلاغية الحديثة ، ومن هذه النظريات: الحجاجية، أو ما يسمى البلاغة الجديدة ، التي تهدف إلى استنطاق النصوص دلاليا من طريق تطبيق عدد من المبادئ البلاغية واللغوية التي حددها البلاغيون المحدثون ، لتبيان الجانب الحجاجي فيها و أثره في بناء قناعات المتلقين للنصوص .

المقدمة

لعل من المتفق عليه بين المشتغلين في الحقل اللغوي أن أغلب الخطابات اللغوية سواء أكانت إبداعية أم خطابية تستبطن نفَساً حجاجياً ، لكن الاختلاف ربما يقع بمستوى الوضوح من عدمه ، فقد يكون الحجاج صريحا وقد يكون مضمنا . والأساليب البيانية عموما من الصنف الذي تستبطن نفساً حجاجياً بصورة أو بأخرى ، ومن هذه الأساليب (التشبيه الضمني) ، الذي يمتاز بخصائص متعددة تميزه عن غيره من أنواع التشبيه ، و أبرز تلك الخصائص هي وجود قضية مفترضة تطرح في طرف المشبه ، تحتاج إلى برهان وحجة تثبتها وهو ما يتكفل به الطرف الثاني أي المشبه به.

وهذا البحث يحاول التأسيس لدراسة الأساليب البلاغية المألوفة على وفق النظريات البلاغية الحديثة ، ومن هذه النظريات: الحجاجية، أو ما يسمى البلاغة الجديدة ، التي تهدف إلى استنطاق النصوص دلاليا من طريق تطبيق عدد من المبادئ البلاغية واللغوية التي حددها البلاغيون المحدثون ، لتبيان الجانب الحجاجي فيها وأثره في بناء قناعات المتلقين للنصوص. وسأعمد إلى تقسيم البحث إلى ثلاثة مباحث، يتضمن المبحث الأول: التعريف بالتشبيه الضمني، والمبحث الثاني يختص بتبيان أسس النظرية الحجاجية، أما المبحث الثالث فبحثت فيه الطابع الحجاجي في التشبيه

الضمني، من طريق التشديد على ميزة الفصل البنائي بين المشبه والمشبه به في هذا النوع من التشبيه، ثم الانتقال إلى ما تحدثه من تداخل دلالي بين طرفي التشبيه وصولا للميزة الحجاجية .

المبحث الأول

التشبيه الضمني

التشبيه الضمني هو تشبيه لا يوضع فيه المشبَّه و المشبَّه به في صورة من صور التشبيه المعروفة ، بل يلمحان و يفهمان من المعنى . ويكون المشبَّه به برهاناً على إمكان ما أسند إلى المشبَّه . كقول المتنبي: ١

من يَهُن يسهُل الهوانُ عليه ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ

أي أنَّ الذي اعتاد الهوان يسهل عليه تحمله ، و لا يتألم له ، وليس هذا الادعاء باطلاً ؛ لأنَّ الميت إذا جُرح لا يتألم . وفي ذلك تلميح بالتشبيه في غير صراحة ، وليس على صورة من صور التشبيه المعروفة .[٢] وهذا النوع من التشبيه يدل على التفنن في أساليب التعبير ومن ذلك أن الكاتب يوحي بالتشبيه غير مصرح به ، وهو يفيد أن الحكم الذي أسند إلى المشبه ممكن الوقوع ، ومعنى ذلك أن المشبه به في التشبيه الضمني يكون برهانا على الحكم الذي أسند إلى المشبه.[٣]

فهو يلمح من المعنى لمحاً ، وعماده الأدلة المنطقية ، والتعليلات الفلسفية .[٤] و يعتمد في فهم الكلام كثيراً على التناظر بين الباثّ و المتقبّل ، فالتفاهم لا يحصل إلاَّ إذا توافرت عند السامع العناصر التي يملكها المتكلم ، التي تتصل بموضوع كلامه . فالشاعر أو منتج النص في هذا النوع من التشبيه قد استند إلى فطنة السامع في إكمال الصورة التشبيهية ، التي ترك إكمالها عامداً من أجل تحريك خيال المتلقي .[٥]

وغياب رابط التشبيه هنا لا يستدعي تقديره ؛ لأنَّه لم يترك وراءه أثراً ، و إنَّما صدر الكلام معمياً بصورة مقصودة ، وتناسب هذه التعمية درجة الاستقلال الظاهر بين جملتي المشبَّه و المشبَّه به ، فتكون الأولى بمثابة حكم أو مبدأ نسبي محدود يصدره المتكلم ثم يورد الطرف الثاني لترسيخه و توكيده من طريق ما يتوافر فيه من إطلاق و اطَّراد . و مظاهر النسبية عديدة تتمثل في ظواهر و أحداث أو ذوات محدودة في العدد و المدى ، أما مظاهر الإطلاق فتقابلها بشيوعها و انتشارها .[٦] ولعل عبد القاهر الجرجاني أول عالم بلاغي أشار الى التشبيه الضمني بلا نص صريح على مصطلحه ، وفرزه عن سائر ألوان التشبيه بالفكرة الرئيسة التي نوهنا بها .[٧] وهو يمتاز عن سواه بخمس خصائص مجتمعة :[٨]

١. ان المشبه والمشبه به آليهما يلمحان ويستنتجان بلا ترابط نحوي مباشر فيما بينهما .
٢. ان المشبه جملة او مجموعة جمل مستقلة منفصلة عن المشبه به الذي يجيء جملة او طائفة من الجمل ايضا" .
٣. أن المشبه يثير فكرة فيها غرابة وادعاء فلا يسلم بها القارئ تسليماً مباشراً وانما يحتاج في القبول بها الى دليل يقنعه ويرسخ اعتراف بها .
٤. ان المشبه به يستوي مثلا" وشاهدا" تقربه العقول بداهة" وتطمئن القلوب الى صحته سليقة وأن يكون مستقرا" في الطباع او جاريا" مجرى السنة والقانون في
الحياة والمشاهد .
٥. ان حال المشبه وحال المشبه به الذين يلمحهما القارئ تتكافآن وتتساويان بلا زيادة لاحداهما على الأخرى وبلا نقصان لطرف عن سواه. وللتشبيه الضمنيّ فوائد متعددة ، منها :[٩]
١- يقرّر حكماً للمشبّه ويثبت صحّته بالبيّنة والبرهان.
٢- يظهر الغريب على أنّه شيء اعتيادي .
٣- يجمع بين أمرين متباعدين، وجنسينِ غير متقاربين .
٤- هو تشبيه بالإشارة والتلميح، لا بالوضوح والصراحة .

و لم ينص البلاغيون القدامى – فيما اطلعت – على ورود التشبيه الضمني في القرآن الكريم ، إلاَّ أن بعض المحدثين أشار إلى وجوده ، مورداً بعض الأمثلة التي وجهها تلك الوجهة . ومن أمثلته في القرآن الكريم التي أوردها المحدثون قوله تعالى (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) [البقرة:٢٦٦] . إذ تضمنت الآية تشبيهاً ضمنياً لمن لا ينفق أمواله في سبيل الله، أو يتبع إنفاقه بالمن والأذى؛ فإن ذلك يجعل المال ممحوقاً محترقا، تماماً كالثمرات التي أصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت؛ فهو تشبيهٌ ضمني، يدعم القضية بأسلوبٍ واضح . ولكي يطمئن الرسول (صلى الله عليه و آله) أكثر ويصبر على من كذب وكفر؛ يوضح الله تعالى له أن الناس مختلفون في النفوس والقلوب، فمنهم من يستجيب ومنهم من يكذب، فلا يبتئس ولا ييأس، بل يستمر في البلاغ والإنذار، ولا يزعجه تعنت الكفار، فالناس مختلفون في الأفكار والأبصار.

وهذا الإيضاح يأتي في الآية التي تلي ذلك ، إذ يبين الله هذا الاختلاف بأسلوب التشبيه الضمني فيقول: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنْ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ) [فاطر:٢٧، ٢٨].

فالحياة وما تحويه من الأشجار والأحجار والجبال والدواب والأنعام مختلفة الأشكال والألوان، وما دام الأمر كذلك فالناس جزءٌ من هذه البيئة؛ فلا بد أن يكونوا مختلفين كذلك؛ فمنهم الطيب ومنهم الخبيث، ومنهم الخصب ومنهم النكد، ومنهم الناعم ومنهم القاسي، ومنهم اللين ومنهم الصلب، ومنهم الغافل الجاهل، ومنهم العالم العاقل.[١٠] وهذا تشبيه ضمني إذ شبَّه سبحانه اختلاف الناس في أشكالهم و أمزجتهم وقدراتهم بما تحويه الدنيا من كائنات ومظاهر طبيعية مختلفة الألوان والأشكال.

والواقع أنَّ التشبيه الضمني و على الرغم من شيوع وروده في الشعر على وفق الصيغ التي تقدم ذكرها ، إلاَّ أنَّه يرد بصيغ مختلفة تخضع جميعها لتأويل المتلقي وفهمه ، وما ذلك إلاَّ برهان على الطبيعة الخاصة لهذا النوع من التشبيه ، الذي يمتاز أساساً بكونه أسلوبا يتمتع بخفاء دلالي مقصود .

المبحث الثاني

الحجاجيّة

تتميَّز اللغة العربية بتنوُّع أساليبها ، وتعدد فنونها التعبيرية ، فضلاً عن بلاغتها وفصاحتها، ومن الأساليب البيّنة الظاهرة فيها أسلوب الحجاج، وهو إيراد الحجَّة، والحُجَّة تعني الإقناع والمحاجَّة والمخاصمة المتعلِّقة برد الرأي المغلوط والانتصار للحقيقة . والحِجاج يلفظ بكسر حرف العين، وهو مفهومٌ مشتقٌ من الجذر الثلاثي حججَ، بمعنى استعمال البرهان عند الدفاع عن رأي ما، ويُعرَّف بأنه مجهود ذهني ، يعتمد في عرضه على عمليّاتٍ عقليّةٍ استدلاليّة ، عن طريق التواصل الإنساني ، وتبادل الخطاب الفكري ، والمخزون الثقافي والحواري ، وغايتها الإقناع والتأثير في الآخرين ، وهو ساحةٌ مفتوحة لالتقاء وجهات النظر ، المتوافقة والمتعارضة، ويبحث الحجاج في مختلف الميادين المعرفيّة ، كالقانون والفلسفة واللسانيّات والمنطق ، حتى أنه تخطى الحدود ليشمل علم النفس والاجتماع ، ونظريّة التواصل وطرق التعبير وغيرها ١١. ويعدّ أرسطو الفيلسوف اليوناني أول من استعمل الممارسات الحجاجيّة بشموليّةٍ ودقةٍ و إبهار ، ويبدو هذا جليّاً في مؤلفاته ، ككتاب الشعر والخطابةِ والجدل ، ومن طريق إتباعه التدليل اللاصوري في مدونته "الأرغانون" ، و التي ترجمت إلى اللغةِ العربيّة ، و اعتمدت أساساً للأساليب الحجاجيّة في المدارس الإسلاميّة بمختلفِ توجهاتها ، فكانت من أهم ركائز علم الفقه والكلام والمعاني و البيان ، ولا سيما عند ابن رشد وابن خلدون وابن سينا والفارابي وغيرهم .[١٢]

و يعدّ الحجاجُ أحدَ الأنماطِ النصيّة في اللغة والذي يُعرَفُ بنظريّة الحجاج، إذ تحتوي هذه النظريّة على مجموعة من الحجج التي تذكر من أجل الإقناع والدلالة على بطلان الرأي أو صحّته، ويكون النصّ الحجاجي موجّهاً للجميع، سواء أكان شخصاً واحداً أم جماعاتٍ من الأشخاص لإقناعهمْ بالعزوف عن آرائهم وتغييرها في مختلف القضايا السياسيّة والفكريّة، ويكون النصّ الحجاجيّ متطرّقاً لجوانب الرؤية الذاتيّة والموضوعيّة في الوقت نفسه، إذ يكون بعيداً عن الصرامة الشديدة والمتزمّتة، كتلك المستعملة في العلوم الرياضيّة والطبيعيّة.[١٣]

أما عن بنية النص الحجاجيّ فتشير الدراسات المتعلّقة بالنصوص الحجاجيّة إلى أنّ هذه النصوص تُكتب بلغةٍ ذات صفات تقريريَّةٍ وموضوعيَّةٍ، من طريق عرض الأفكار المراد التعبير عنها بطريقة واضحة وسلسة مباشرة، ويعدّ أسلوب البرهنة أحدَ أهمّ الأساليب المستعملة في النصوص الحجاجيّة والتي تكونُ متطرّقة إلى الذاتية في بعض القضايا مع توظيف بعض العمليّات العقليّة للانتقال من فكرة لأخرى مثل الاستقراء، إذ تسمح هذه العملية بالانتقال من الفكر الخاص إلى الفكر العام بطريقة شموليّة. ويُنتقل من الفكرة إلى نقيضِها، ومن نقيضها إلى نقيض آخر من طريق النمط الجدلي ، وممّا يستعمل أيضاً النمط السببيّ الذي يربطُ بين الأسباب والمسبّبات لها.[١]

و للنص الحجاجيّ خصائص متعددة منها :[١٥]

- استعمال أدوات الربط المنطقيّ مثل: إذن، هكذا ،لأن، كي .
- استعمال الاستدلال المنطقيّ.
- مراعاة الربط بين كلّ فقرة والتي تليها، من طريق استعمال أدوات التوكيد، وحروف العطف المتعدّدة، وغيرها.
- مراعاة الربط بين السبب ونتيجته.
- ذكر الأحداث والمواقف بوصفها نوعاً من البراهين.
- الربط بين الجمل، باستعمال الضمائر وأسماء الوصل والعطف.
- استعمال مُعجم الموازنة، والمقابلة، والمجادلة.
- الميل للإقناع باستعمال أدوات التوكيد، مثل (إنّ ،أنّ، إنّما).

وفضلا عن ذلك و توجد مجموعة من الخصائص التي يتميز بها الحِجاج بصورة عامة ، وتلك الخصائص هي :

١-التشابه مع السياق: أي إنّ الحِجاج قد يؤدّي إلى استنباط حُجج أخرى، أو نتائج جديدة من طريق دراستهِ للسياق النصي، وهكذا تحتوي العبارة الواحدة على حِجةٍ واضحةٍ تُثبت القضية، أو الفكرة المرتبطة بها.

٢-النسبية : أي إنّ الحجة يجب أن تتميّزَ بالقوةِ لتأكيدها، وقبولها فترتبط كلّ حجة بنتيجة معينة، فمثلاً: يُقدم شخصٌ حجة حولَ موضوع ما، ويُقدم شخصٌ آخر حجة أخرى بشأن الموضوع نفسه فتعتمد الحجة الأقوى ، وتهمل الحجة الأضعف بينهما.

٣-القابلية للتبديل: أي إنّ كلّ حجة قابلة للتغيير بما يتناسب مع السياق، والاتفاق، والبراهين، والدلائل المستحدثة، ولاسيما عندما تأتي حجة جديدة تُبطل مفعول الحجة السابقة لتحل محلها .

وينتفع التشبيه الضمني في إظهار خصائصه الحجاجية مما يسمى : (المبادئ الحجاجية) ، انطلاقاً من أن وجود الروابط والعوامل الحجاجية لا يكفي لضمان سلامة العملية الحجاجية، ولا يكفي أيضا لقيام العلاقة الحجاجية، بل لابد من ضامن يضمن الربط بين الحجة والنتيجة، هذا الضامن هو من يعرف بالمبادئ الحجاجية (les topoi)، وهي تقابل مسلمات الاستنتاج المنطقي في المنطق الصوري أو الرياضي. هذه المبادئ هي قواعد عامة تجعل حجاجا خاصا ما ممكنا، ولها خصائص عديدة، نذكر منها ما يأتي :

١- إنها مجموعة من المعتقدات والأفكار المشتركة بين الأفراد داخل مجموعة بشرية معينة.

٢- العمومية: فهي تصلح لعدد كبير من السياقات المختلة والمتنوعة .

٣- التدرجية (la gradualite): إنها تقيم علاقة بين محمولين تدريجيين أو بين سلمين حجاجيين (العمل- النجاح) مثلا.

٤- النسبية: فإلى جانب السياقات التي يجري فيها تشغيل مبدأ حجاجي ما، هناك إمكان إبطاله ورفض تطبيقه بعدِّه غير وارد وغير ملائم للسياق المقصود، أو إبطاله باعتماد مبدأ حجاجي آخر مناقض له. فالعمل يؤدي إلى النجاح ولكنه ربَّما يؤدي إلى الفشل في سياق آخر إذا زاد عن الحد المطلوب ، وإذا نظر إليه على أنه تعب وإرهاق وإهدار للطاقة. وإذا نظرنا في المثالين التاليين :

- أنا متعب، إذن أنا أحتاج إلى الراحة.
- سينجح زيد لأنه مجتهد

فسنقول إن المبدأ الحجاجي الموظف في الجملة الأولى هو:

- بقدر تعب الإنسان، تكون حاجته إلى الراحة

ويمكن أن يصاغ هذا المبدأ صياغة تعبيرية أخرى:

- كلما كان الإنسان متعبا، كان به حاجة إلى الراحة
- يكون الإنسان به حاجة على الراحة بمقدار ما يكون متعبا.

ونشير إلى أن اللغوي السويسري ألان براندوري صاغ هذه المبادئ صياغة استلزامية على الشكل الآتي :"إذا أ، فإن ب" ، لكن ديكرو انتقد هذه الصياغة، واقترح صياغة أخرى ذات طابع تجريدي، وذلك باعتماد قيمتي "زائد"(+) و"ناقص (–)، بحيث عبر عنها بهذا الشكل:

(≠) Il fait beau, la promenade est agreable

- ونترجمها على النحو الآتي :
- بقدر ما يكون الجو جميلا، تكون النزهة محبذة .

ويشتمل المثال الآخر على مبدأ حجاجي من قبيل:(الاجتهاد يؤدي إلى النجاح) أو (تكون فرص نجاح الإنسان بقدر عمله واجتهاده). فالمبادئ الحجاجية إذن، هي مجموعة من المسلمات والأفكار والمعتقدات المشتركة بين أفراد مجموعة لغوية وبشرية معينة، والكل يسلم بصدقها وصحتها، فالكل يعتقد أن العمل يؤدي إلى النجاح ،وأن التعب يستدعي الراحة ،وأن الصدق والكرم والشجاعة كم القيم النبيلة والمحببة لدى الجميع، والتي تجعل المتصف بها في أعلى المراتب الاجتماعية، والكل يقبل أيضا أن انخفاض ميزان الحرارة يجعل سقوط المطر محتملا. وبعض هذه المبادئ يرتبط بمجال القيم والأخلاق، وبعضها الآخر يرتبط بالطبيعة ومعرفة العالم .

وإذا كانت المبادئ الحجاجية ترتبط بالإيديولوجيات الجماعية، فإنه من الممكن أن ينطلق استدلالان من المقدمات نفسها ، وأن يعتمدا نفس الروابط والعوامل، ومع ذلك يصلان إلى نتائج مختلفة، بل متضادة .ولن يفسر هذا إلا باعتماد مبادئ حجاجية تنتمي إلى إيديولوجيات متعارضة. لكن إلى جانب هذه المبادئ المحلية (topoi locaux) المرتبطة بإيديولوجيات الأفراد داخل المجموعة البشرية الواحدة، هناك مبادئ أخرى أعم، وهي مشتركة بين جميع أفراد المجموعة اللغوية ، ومؤشر لها داخل اللغة.١٦ إذن يمكن أن نقول إنَّ المبدأ الحجاجي هو مجموعة من القواعد الكلية ، التي تنطلق من مبادئ فكرية و إنسانية عامة ، تسالم عليها الناس أو على

الأقل فئة كبيرة منهم ، وهي تتيح للمتكلم خزيناً معرفيا متجدداً ، يستطيع أن يشقق منها حججاً لا متناهية ، تعينه على تعضيد دعواه و إثبات رأيه .

وهنا نجد التقاءً بين التشبيه الضمني و المبدأ الحجاجي ، إذ يستند الأول إلى حجج ومسلمات معروفة يجعلها مشبهاً به ليبرهن بها على صدق الدعوى التي أطلقها مع المشبه ، والتي تكون غالباً دعوى جدلية أو إشكالية ، تحتاج إلى ما يثبتها ، فيأتي الإثبات منطلقا من مبادئ واقعية معروفة ، يصعب معها دحضها أو التقليل من شأنها أو حتى التشكيك بتطابقها فنياً ؛ لأنَّ العملية التشبيهية بالمحصلة هي عملية فنية خيالية ، تحاول الجمع بين أشياء لا جماع بينهما في الواقع .

المبحث الثالث

الحجاجية في التشبيه الضمني

تقدم القول إنَّ منشئ النص قد يلجأ عند التعبير عن بعض أفكاره إلى أسلوب يوحي بالتشبيه ، من غير أن يُصرح به في صورة من صوره المعروفة . ونحن في هذا المبحث نستند على خاصيتين لتثبيت الحجاجية في التشبيه الضمني، الخاصية الأولى متعلقة بالحجاج ، وهي ما أسلفنا القول عليه من (مبادئ الحجاج) إذ يستند التشبيه الضمني إلى علاقة حجاجية بين المشبَّه و المسبَّه به، فيفترض المتكلم مسألة معينة في المشبَّه تبدو غير مؤكدة الوقوع ، ويلفها الشك لما تتضمنه من مبالغات أو ادعاءات لم يَألف المستمع حصولها أو تحققها على أرض الواقع . يأتي بعد ذلك المشبه به ليزيل الغرابة والشك الذي يلف المشبه ، من طريق الإتيان بحجج معروفة و متداولة و تتسم بثبات نسبي يصعب معها دحضها أو ردها ، وتلك الحجج تنطلق من مبادئ حجاجية معروفة ومسلم بها . مثال ذلك قول المتنبي:[١٧]

و أصبح شعري منهما في مكانه و في عُنق الحسناء يستحسن العقدُ

فقد ادعى الشاعر دعوة تحتاج إلى بينة ، إذ قد يسأل سأل : ما الدليل على أن شعر الشاعر في الممدوحين أصبح في مكانه المناسب ، وهو الأمر الذي يزيده حسناً و بهاءً ، فعمد الشاعر إلى الإتيان ببرهان وحجة لا تحتمل جدالاً وتسلم بها العقول تلقائياً ، وهي : أن العقد لا يظهر رونقه و جماله إلا إذا وضع في مكانه المناسب ، الذي هو عنق الحسناء ، فشبَّه شعره بالممدوحين بالعقد في عنق الحسناء ، تشبيها قائما على الحجة التي لا تدحض . وقوله:[١٨]

كرمٌ تبين في كلامك ماثلاً و يبنُ عتقُ الخيلِ من أصواتِها

وفي هذا المثال يخبر المتنبي ممدوحه بأنَّ كرم فطرته و وأصله و أخلاقه ظاهر في نبرات صوته، و ذلك ادعاء يحتاج إلى برهان أو حجة تعضده ، فقرنه تشبيهياً بقوله: إنَّ الخيل الأصيلة إنما تعرف من أصواتها ، وهو تشبيه بديع استند إلى حجة دمغة لا يمكن ردها، و التفاتة فطنة لا تتأتى لكل أحد . وقوله:[١٩]

فإن تَفُقِ الأنامَ و أنتَ منهم فإنَّ المِسكَ بعضُ دمِ الغزالِ

و أراد أنَّه فاق الأنام وفاتهم إلى حدٍّ بطل معه أن يكون بينه و بينهم مشابهة و مقاربة ، بل صار كأنَّه صار أصل بنفسه . وجنس برأسه ، وهذا أمر غريب ، وهو أن يتناهى بعض أجزاء الجنس في الفضائل الخاصة به إلى أنَّ يصير كأنه ليس من ذلك الجنس ، و بالمدعي له حاجة إلى أن يصحح دعواه في جواز وجوده على الجملة ، إلى أن يجيء إلى وجوده الممدوح . فإذا قال : (فإنَّ المسك بعض دم الغزال) فقد احتج لدعواه ، و أبان أنَّ لما ادعاه أصلاً في الوجود.[٢٠] أما قول أبي فراس الحمداني :[٢١]

سيذكرني قومي إذا جدَّ جدُّهم و في الليلةِ الظلماءِ يفتقدُ البدرُ

فهو يستند إلى الخاصية نفسها ، فقوله إن قومه سيفتقدونه بعد غيابه عنهم لوقوعه في الأسر، أمر يحتاج إلى دليل يسنده ؛ لأنَّه ممكن جدا أن يكون محل تشكيك ، فجاء الشطر الثاني يحمل الدليل المتفق عليه والمسلم به ، وهو أن الناس لا تشعر بغياب البدر وأهمية وجوده إلا عندما يغيب . وقول ابن الرومي :[٢٢]

و يلاه إن نظرت و إن هي أعرضت و قعُ السهامِ و نزعهُن أليمُ

هنا الشاعر يؤكد أن نظرة الحبيبة مؤلمة وهو أمر مفهوم ، لكنه يدّعي أن إعراض حبيبته بنظرها عنه هو أمر مؤلم أيضا ، وهذا ما يحتاج إلى بينة وحجة تدعمه؛ فيأتي الشطر الثاني – الذي هو المشبَّه به – بالحجة المأخوذة من مبدأ حجاجي عام ، يتلخص بأنَّ من يصيبه سهم في جزء من جسده لا شك أنَّه مؤلم له، وهذا الألم يتواصل في حال محاولة نزع هذا السهم . وقول أبي تمام :[٢٣]

ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي أملاً إنَّ السماءَ تُرجَّى حين تحتجبُ

فالمتنبي يرى هنا أنَّ وجود الحجاب بينه وبين من يمدحه ليس سبباً يدعوه لقطع الأمل بنيل وده وعطاياه ، وحجته في ذلك أنَّ الحجاب الذي تكوّنه الغيوم في السماء إنَّما يدفع الناس إلى رجاء عطائها من طريق نزول المطر ؛ فنلاحظ أنه شبَّه رجاءه لكرم الممدوح – على الرغم من احتجابه عنه – برجاء الناس للسماء الملبدة بالغيوم ، فغدى المشبه به حجة على صدق دعواه . وقول المتنبي أيضاً:[٢٤]

من يَهُن يَسهُلُ الهوانُ عليه ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ

فمن الطبيعي أن يكون الهوان صعباً على أصحاب النفوس الكبيرة ، لكن من اعتاد الهوان يصبح الأمر عليه سهلاً يسيراً ، كيف ذلك و هل يقبل إنسان ذلك على إنسانيته ، يأتي المتنبي بعد ذلك بمشبه به فيه حجة على ما قدمه في المشبه مأخوذة أيضا من مبدئي حجاج عام ، وحجته هي أن الإنسان الميت الذي فارقت روحه جسده لن يشعر جسده بالألم بعد ذلك مهما تعرض للطعنات والضربات . ومنه أيضا قول البحتري :[٢٥]

ضحوك إلى الأبطالِ و هو يَروعُهم و للسيفِ حدٌّ حين يسطو و رونقُ

ويبدو البحتري في هذا البيت قد ذهب بعيداً في خياله لمن يسمع أو يقرأ الشطر الأول ، فكيف يمكن الجمع بين المتناقضات في موقف واحد ، فممدوحه يخوّف أعداءه ويزرع الرعب في قلوبهم ومع ذلك فإنَّ الابتسامة لا تفارق محياه ، وهذا خلاف ما معروف عن المقاتلين في أثناء المعارك فوجوههم تكون عابسة لإظهار المزيد من البأس والجلد اتجاه أدائهم . لكن الشاعر سرعان ما يزيل تلك الغرابة بحجة مبدأية معروفة ومتسالم عليها بين الناس ، وهي أنَّ رهافة حدِّ السيف التي تمنحه القدرة الفائقة على اختراق الاجساد لا تمنع من وجود بريق فيه يظهر جانباً جمالياً يضاد الغرض من صنعه ؛ فكان الشطر الثاني مشبهاً به حجاجياً لا يمكن معه دحض ما افترضه البحتري من معنى مع المشبه وهو الشطر الأول . وقول الشاعر :[٢٦]

تزدحِمُ القُصادُ في بابه و المنهلُ العَذبُ كثيرُ الزحامِ

أما في هذا البيت فالشاعر يصف مسألة ليست غريبة ، لكنها أيضا ادعاء يحتاج إلى ما يعضده ويؤيده ، فتزاحم الناس القاصدين قضاء حوائجهم على باب الممدوح أمر يمكن لكلِّ أحد أن يدعيه بلا بينة ، لكن الشاعر لا يترك الأمر للتشكيك أو للأخذ و الرد ويشبه ذلك بتزاحم الناس على المنهل العذب الصافي للتروي منه و إطفاء ظمئهم ، وهو مبدأ حجاجي عام لا يمكن إنكاره . وقول أبي تمام :[٢٧]

و إذا أرادَ اللهُ نشرَ فضيلةٍ طويت أتاح لها لسانَ حسودِ

لولا اشتعال النارِ فيما جاورت ما كان يُعرفُ طيبُ عُرفِ العودِ

وفي هذا المثال جاء التشبيه الضمني بطريقة أخرى ، فيها المشبه تجسد في بيت كامل، والمشبَّه به في بيت آخر ، فهو يفترض في البيت الأول أن ما يلوكه لسان الحسود من أخبار الناس إنما هو بإرادة الله سبحانه وتعالى من أجل نشر فضائل المحسود، لأنَّ طبيعة الحاسد أنَّه لا يتكلم إلا بالأشياء الحسنة التي تستدعي حسده تمنيا لزوالها، فهو ينشر تلك الأخبار الجيدة من حيث لا يشعر. وهذا الأمر لا يبدو مألوفا، وهو ما يستدعي أن يأتي الشاعر بحجة تعضد هذا الادعاء ، فكانت حجته المبدأية أن رائحة العود الطيبة لا تظهر لولا وجود النار التي تحرق محتوياته وتظهر رائحته العطرة ومعدنه الطيب . وقوله أيضاً :[٢٨]

لا تُنكري عطلَ الكريمِ من الغنى فالسيلُ حربٌ للمكانِ العالي

فكرم الإنسان و أصله الشريف قد لا يرتبطان دائماً بالغنى المادي وكثرة الأموال، وهذا الأمر ليس غريبا كما قد يعتقد بعض الناس، فالأماكن العالية مع شرف مكانها وارتفاعها عما يجاورها فإن السيول والمياه لا تصل إليها لتبقى عبارة عن يابسة وصخور فقط، وتلك حجة تعضد المشبه وتطيب خواطر الكرماء الذين لم تنصفهم الدنيا.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة مع التشبيه الضمني والحجاج يمكن إجمال النتائج التي توصل إليها البحث بالآتي:

١- إن الحجاج نظرية تصلح للتطبيق على أغلب الفنون البلاغية ولاسيما البيانية منها .

٢- إن الأسلوب الخاص الذي امتاز به التشبيه الضمني منحه بعداً حجاجياً واضحاً

٣- أثبت البحث أن تمازج التشبيه الضمني بوصفه فناً جمالياً مع الحجاج بوصفه أسلوباً لغوياً عقلياً انتج مزيجاً تركيبياً متفرداً.

٤- مزج البحث بين التشبيه الضمني وما يسمى المبادئ الحجاجية ، بوصفها مخزوناً حجاجياً لا ينضب .

٥- إن استناد التشبيه الضمني إلى حجج تتسم بالعمومية والشيوع جعل منه أسلوباً فنياً خاصاً لا يشبه غيره من أنواع التشبيه .

الهوامش :

(١) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب : ١٦٣ .
(٢) معجم البلاغة العربية ، بدوي طبانة : ٣٦٢.
(٣) علم البيان بين النظرية والتطبيق : ٣٥ ، ومدخل إلى البلاغة العربية : ١٥١.
(٤) البيان في ضوء أساليب القرآن : ١٠٢.
(٥) دروس في البلاغة العربية -نحو رؤية جديدة : ٣٦.
(٦) م ، ن : ٣٧.
(٧) أسرار البلاغة : ٩٥.
(٨) التشبيه في النص القرآني (بحث) : ٢٦٥.
(٩) مقالة: التشبيه الضمني، الشبكة الدولية ، الرابط:www.theb3st.com/t61909-topic
(١٠) التشبيه الضمني في النص القرآني (بحث) : ٢٦٦.
(١١) الحجاج في البلاغة المعاصرة : ومدخل إلى الحجاج ، أفلاطون و أرسطو و شايم بيرلمان (بحث) : ١١.
(١٢) ما هو الحجاج : مقالة منشورة على الشبكة الدولية، الرابط :
(13) http://mawdoo3.com/%D9%85%D8%A7_%D9%87%D9%88_%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%AC%D8%A7%D8%AC
(١٤) النص الحجاجي : مقالة منشورة على الشبكة الدولية ، الرابط :
(15) https://sites.google.com/site/mihfadha/balagha/8
(١٦) خصائص النص الحجاجي، مقالة منشورة على الشبكة الدولية :
http://mawdoo3.com/%D8%AE%D8%B5%D8%A7%D8%A6%D8%B5_%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B5_%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%AC%D8%A7%D8%AC%D9%8A .
(١٧) نظريات الحجاج ، المؤلف: جميل حمداوي ، الناشر: شبكة الألوكة (نشر الكتروني). الرابط: http://www.alukah.net/library/0/59949 /
(١٨) اللغة والحجاج : ٦٢.
(١٩) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب : ٢١٨.
(٢٠) م ، ن : ١٩٣.
(٢١) م ، ن : ٢٧٥.
(٢٢) أسرار البلاغة : ٩٥.
(٢٣) ديوانه : ١٢٢.
(٢٤) ديوانه : ٦٥.
(٢٥) ديوانه : ١/ ١٣.
(٢٦) تقدم تخريجه.
(٢٧) ديوانه : ١/ ٤٥.
(٢٨) البيت لبشار ابن برد في ديوانه : ٣/ ٧٨.
(٢٩) ديوانه : ٢/ ٣٢.
(٣٠) م ، ن : ١/ ٩٨.

المصادر و المراجع :

١- أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) ، تحقيق : محمود شاكر أبو فهر ، القاهرة ١٩٩١م.

٢- البيان في ضوء أساليب القرآن : عبد الفتاح لاشين ، ط٢ ، القاهرة ١٩٨٥م

٣- التشبيه الضمني في النص القرآني/ نبراس جلال عباس/ مجلة كلية الآداب العدد (١٠٤): ٢٦٦.

٤- الحجاج في البلاغة المعاصرة : محمد سالم الطلبة ، ط ١ ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ٢٠٠٨.

٥- خصائص النص الحجاجي، مقالة منشورة على الشبكة الدولية :
http://mawdoo3.com/%D8%AE%D8%B5%D8%A7%D8%A6%D8%B5_%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B5_%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%AC%D8%A7%D8%AC%D9%8A .

٦- دروس في البلاغة العربية نحو رؤية جديدة - : الأزهر الزناد ،ط١، بيروت الدار البيضاء ، ١٩٩٢م.

٧- ديوان ابن الرومي : تحقيق : أحمد حسن بسج ، ط٣ ، بيروت ٢٠٠٢م.

٨- ديوان أبي تمام بشرح التبريزي : تحقيق : راجي الأسمر ، د٢ ، بيروت ١٩٩٤م .

٩- ديوان أبي فراس الحمداني : تحقيق : خليل الدويهي ، ط٢ ، بيروت ١٩٩٤

١٠- ديوان البحتري: تحقيق : حسن كامل الصيرفي ، ط٣ ، القاهرة (د ، ت) .

١١- ديوان بشار بن برد : تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور ، القاهرة ١٩٥٤م.

١٢- العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب : ناصيف اليازجي ، دار القلم ، بيروت (د - ت) .

١٣- علم البيان بين النظرية والتطبيق : محمد لطفي عبد التواب ، ط١ ، بيروت ٢٠٠١م.

١٤- اللغة والحجاج: المؤلف: أبو بكر العزاوي، الناشر: المؤلف ، الطبعة: الدار البيضاء ٢٠٠٦.

١٥- ما هو الحجاج : مقالة منشورة على الشبكة الدولية، الرابط :

http://mawdoo3.com/%D9%85%D8%A7_%D9%87%D9%88_%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%AC%D8%A7%D8%AC

١٦- مدخل إلى البلاغة العربية ، يوسف أبو العدوس ، ط١ ، بيروت ٢٠٠٧م.

١٧- -مدخل إلى الحجاج ، أفلاطون و أرسطو و شايم بيرلمان : محمد الولي ، بحث منشور في مجلة عالم الفكر ، ع : ٢ ، مج: ٤٠ ، ديسمبر ٢٠١١م.

١٨- معجم البلاغة العربية ، بدوي طبانة ، ط٤ ، بيروت- جدة ١٩٩٧م.

١٩- النص الحجاجي : مقالة منشورة على الشبكة الدولية ، الرابط :

20- https://sites.google.com/site/mihfadha/balagha/8

٢١- نظريات الحجاج ، المؤلف: جميل حمداوي ، الناشر: شبكة الألوكة (نشر الكتروني). الرابط:

http://www.alukah.net/library/0/59949/

Abstract

The most common of these is the presence of a supposed cause in the end of the syllabus, which needs proof and argument to prove it. This is what the second party is responsible for.

This research seeks to establish the study of rhetorical methods familiar according to modern rhetorical theories. These theories include: "Pilgrim" or "new rhetoric," which aims at questioning the texts through the application of a number of rhetorical and linguistic principles, Its impact in building the convictions of the recipients of texts